

هوية الأسرة المسلمة؛ بين الجوهري والعرضي

د. بدران بن الحسن

مركز ابن خلدون للعلوم الاجتماعية والإنسانية/ جامعة قطر

منتدى القيم والأسرة في عالم متغير
معهد الدوحة الدولي للأسرة وجامعة حمد بن خليفة
6-7 ديسمبر 2023

الإشكال:

في خضم الأحداث والتحوّلات العديدة التي يشهدها العالم، تبدو الأسرة في مواجهة مواقف متعددة، تمارس ضغوطات تجاه أفرادها على رأسها التصورات والأحكام والقيم التي أنتجها الإسلام، والعادات التي تشكلت بفعل الأعراف والتقاليد المجتمعية، والتوجهات الحداثيّة التي تشكلت بفعل العولمة والانفتاح غير المعهود على القيم المعولمة، خاصة الغربية ذات الطابع الرأسمالي الليبرالي المادي، مما جعل هوية الأسرة المسلمة في ملتقى طرق، وتواجه تحديات متعددة.

وهنا يطرح سؤال هوية الأسرة المسلمة؛ ما هو الجوهرى/الثابت في الأسرة المسلمة وما هو العرضي/المتغير؟

في سؤال الهوية:

مصطلح «الهوية» لفظ تراثي قديم، موجود في كتب المصطلحات مثل (التعريفات) للجرجاني، ومعناه أن يكون الشيء هو هو، وليس له مقابل؛ مما يدل على ثبات الهوية. وهو موجود أيضا في المعاجم والقواميس الغربية في مصطلح *Identité*، و *Identity*، وأحيانا في مصطلح «الإنية» المشتق من «أنا» *ipseité* و *ipseity* بنفس المعنى. ويمكن التعبير عن مبدأ الهوية بالتعبير الرياضي $A=A$. فإذا قلنا إنَّ الإنسان هو الإنسان، فإنَّ الإنسان بهذا المعنى لا يتغير في جوهره، وإنما هو ثابت. أما الأشياء التي تتغير فيه، فهي المسائل العرضية. وإذا أردنا معرفة ما هو جوهري مما هو عرضي في حياة الإنسان، علمنا أنَّ هوية الإنسان الجوهرية فيما هو ملازم له. أما ما هو عرضي منه فهو خارج عن ذاتيته وليس ملازما له. ومن الأمثلة التي يمكن الاستناد إليها في معرفة ما هو جوهري من الإنسان، ويمثل هوية الإنسان، هو عقله وكيانه وأخلاقه. أما ما يمثل عرضه فهي الأشياء الخارجة عن ذاته: جميل وغني وطويل وقصير وعربي وأعجمي ورجل وامرأة ... الخ.

- ومن هنا فإن الأسرة المسلمة فيها ما هو جوهري وفيها ما هو عرضي؛
- فالجوهري هو ما كان ملازماً لها، وهو ما يكون غيابه هدماً لذات الأسرة المسلمة،
- أما العرضي فهو خارج عن ذاتيتها وليس ملازماً لها، ولا تزول عنها ذاتيتها بتغير الأوصاف العرضية (كالجغرافيا، والعالمية، وغيرها) فيبقىها أسرة مسلمة مهما كانت جغرافيتها، وموقعها في العالم.

1. مال هو الجوهرى فى الأسرة المسلمة؟

الجوهرى فى الأسرة المسلمة هو ما يحدد ذاتيتها/ هويتها؛ أى ما لا تكون الاسرة مسلمة إلا به. ينقسم إلى أربعة أقسام؛ ما يتعلق بالبنية (كيفية تشكل الأسرة المسلمة، والقيم التى تحكمها، والوظائف، والغاية (المقصد) الذى أنشئت من أجله.

1.1. البنية: طريق/ كيفية تشكل الأسرة: المصاهرة والنسب، الزواج، وما يترتب على ذلك

1.2. القيم التى تقوم عليها: الحلال والحرام، المودة والسكينة والرحمة المعروف، الاحسان، التكريم ...

1.3. الوظائف والعلاقات فى الأسرة والمسؤوليات، والحقوق والواجبات.

1.4. المقصد الذى أنشئت من أجله الأسرة: الحياة الطيبة وتحقيق الاستخلاف

2. ما هو العرضي في هوية الأسرة المسلمة؟

أما العرضي فهو ما يرتبط بسياقات الزمان والمكان، ولا يزيل وصف الإسلامية عن الأسرة.

وهنا تأتي سياقات المكان والزمان؛ أي ما يرتبط بهويات أخرى للأسرة، بشرط أن لا تزيل عنها وصفها الجوهرى بأنها مسلمة

2.1. الجغرافيا (المكان)

تاريخية الوجود الأسري: الأسرة تنتمي إلى مجال اجتماعي تاريخي معين، ينزل المتعالي / المعياري إلى خصوصيات تتعلق بالسياق. وفي هذا تأتي الجغرافيا التي تحدد السياقات الاجتماعية المختلفة التي قد تكون فيها الأسرة.

- فنجد أسرة مسلمة قطري، وأسرة مسلمة ماليزية، ونجد أسرة مسلمة سودانية، ونجد أسرة كسلكة فرنسية، وأسرة مسلمة كندية، وهكذا؛ تختلف في عاداتها، وفي أذواقها، وفي أحكامها الجزئية، وفي تقاليدها، واختياراتها الجمالية والفنية، وتاريخها.

- وهنا تدخل دوائر أخرى للهوية لكنها لا تعود على الهوية الجوهرية بالإبطال، بحيث يبقى وصف الإسلامية ملازما لها.

2.2. المواطنة العالمية: عالمية القيم أم عالمية المشترك

- تأتي مسألة المواطنة العالمية، التي هي من جهة تحمل طابع العرضية، لأنها نتيجة لسيرورة التاريخ وصيرورته.

- ومن جهة أخرى تحمل طابع الجوهرية حينما يتعلق الأمر بالجانب المعياري، الذي تطرح فيه مسألة الخصوصية والغيرية؛ أو المحلية والكونية.

- وهنا يأتي سؤال معيار العالمية الذي تحمله هذه المواطنة؛ هل هو انتماء إلى قيم عالمية في ذاته قابلة للتعميم، وتستجيب لإنسانية الانسان، وتحقق تطلعاته، أم يتم فرض قيم حصرية خاصة بأدوات الهيمنة؟

وهنا نحن أمام حالتين للمواطنة العالمية؛ حالة الواقع، وحالة السيرورة التاريخية.

أ. حالة الواقع:

- قولبة وفرض لنمط من المواطنة على العالم بطريقة امبريالية (مفهوم الزواج / مفهوم الاسرة / فوانين تنظيم الاسرة / حقوق المرأة والطفل / ...). - فاتفاقية (سيداو) مثلاً، لمناهضة كافة أشكال التمييز ضد المرأة، تدعو في المادة السادسة عشر منها لمفرداتٍ تجتمع مع بعضها لنقض عرى الزوجية؛ فالقوامة

مشتركة، ولا ولاية للأب على بناته، والإرث بالتساوي، ولا تُكَلَّف زوجًا بالنفقة على زوجته، ولا تتولَّى له أمراً في سفرها ولا حضرها، ولا سكنها معه في البت أو في غيره إن شاءت!!

- مؤتمر (بكين) للمرأة والسكان يُشيع أنواع أسرٍ جديدة؛ مُساكنةً أو شذوذًا أو علاقةً غير شرعية، ويدعو إلى الفوضى الجنسية بشكل أو بآخر.

- واليوم مع موجة "السدومية الجديدة" التي تريد تعريف الحياة الزوجية بطريقة لا تقوم بين ذكر وأنثى وإنما بين ذكرين أو اثنيين أو خلاف ذلك. وهذا يحطم جوهر الحياة الزوجية التي هي أساس الاسرة وبقية قيمها ووظائفها وغاياتها.

وهنا تبرز مسألة الخصوصية الثقافية، حيث يراد تعميم خصوصيات ثقافية حصرية على بقية العالم. ولذلك فإن سمو الشيخة موزا بنت ناصر في افتتاح أعمال مؤتمر الدوحة الدولي حول الأسرة، في 17 أبريل، 2014. أكدت بأنه "لكل مجتمع خصوصية اجتماعية وثقافية، كما أن لدى جميع بلدان العالم تحدياتها الخاصة في مجال قضايا الأسرة، فإن تطبيق السياسات والاستراتيجيات يقتضي كذلك خصوصية في آليات التنفيذ تراعي التمايزات القيمة بين البلدان".

مشيرة الى أن "الأسرة هي نواة المجتمع ووحدته المصغرة وهي الحاضنة التربوية للأجيال، إذا صلحت صلح المجتمع، وإذا تفككت تفكك .. منوهة بأن لنا كعرب ومسلمين تراثا دينيا وثقافيا واجتماعيا يقدس العلاقة بين الآباء والأبناء، ويكرم القيم الحميدة التي تكرر الترابط والتكافل والتراحم بين أفراد الأسرة."

ولعلنا هنا نتذكر فكرة مالك بن نبي في أن "لكل ثقافة شرطها التاريخي الذي تخلقت في رحمه. مما يعني أن استيراد النماذج الثقافية لحل مشكلات ثقافية تنطوي على مخاطرة أنطولوجية (وجودية) للمجتمع

ب. حالة الصيرورة التاريخية (منطق التاريخ والمشارك):

- وهنا يأتي منطق التاريخ الذي تقودنا عليه سنن الله في مسيرة التاريخ، في أن الإنسانية مصيرها مشترك، وعليها أن تحتكم إلى المشارك.

- والمشارك بين المختلفين هو ما يحمل طابع القدرة على تحقيق متطلبات الجميع؛ وهو هنا الإسلام.

- والإسلام يمكن ان ينظر إليه من زوايا عديدة:

1. فهو فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولذلك فهو جوهرى للإنسان، لأنه يحافظ على إنسانيتها من الاختزال والابتذال.

2. وهو ملاذ روي للحضارة الإنسانية بعد أن اغرقتها الحضارة المعاصرة في المادية والاستهلاك والخواء من الثابت المتعالي.

3. وهو خطاب ورسالة للإنسان من حيث كونه إنساناً؛ يرفع عن الانسان إصره والأغلال التي وضعها عليه باسم أيديولوجياته المختلفة. إذ أن الإسلام في عقائده وقيمه وشعائره وتشريعاته يثبت الأوصاف الجوهرية للإنسان حيث كان لونه وجنسه ولسانه ومكاته، ويوجه الأوصاف العرضية المختلفة لتكون خادمة للوصف الجوهرى، ويثري التجربة الإنسانية.

خاتمة:

- معرفة الجوهرى والعرضى، معرفة الثابت والمتغير، يسمع بالتعامل مع مختلف التحديات بفعالية، ويسمح بالتكيف.
- وهذا يفتح باب المثاقفة الإيجابية التي لا تذوب في الآخر، بل تثري تجربتها منه، وتثري تجربة الآخر
- وهذا يفتح المجال أمام الوعي بالاختلاف وحدود المشترك، مما يسمح بالتعايش لا الذوبان.
- وكذلك يمنح للأسرة المسلمة والقائمين على صناعة المعرفة والاجتماع والعمران، أن يكيفوا المنقول من ثقافات أخرى وفق الثقافة الإسلامية.
- جعل الخصوصية منطلق الكونية/العالمية.

شكرا لكم
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم